وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم الجغرافية

المحاضرة التاسعة

فتوحات السلطان سليمان القانوني

(١٥٢٠-١٥٦٦م)

اعداد

م.د.أسامة عبد الخالق عايد

للعام الدراسي ٢٠٢٥-٢٠٢٦

فتح بلغراد

مـا إن وصـلت رؤوس جـانبردي الغزالـي ومـن معـه مـن العُصـاة إلـى العتبـة السُـلطانيَّة، حتَّـى ورد خبـر قتـل السـفير الـذي أرسـله السُـلطان إلـى ملـك المجـر لـويس الثـاني لإعلامـه بارتقائه العرش، ويُطالبه بدفع الجزية السنويَّة المُقترحة منه مُقابل تجديد الصُلح.

ويبـدو أنَّ لـويس هـذا كـان قـد عـزم علـى فـكِّ أيِّ تعهُّـداتٍ كانـت قـد أُعطيـت للعُثمـانيين مـن قِبـل أسـلافه، لـذلك ذهـب إلـى حـد قتـل الرسـول مبعـوث السُـلطان. أثـار هـذا العمـل حفيظـة سُـليمان، فاستشـاط غضـبًا وأعلـن الحـرب علـى المجـر. والحقيقـة أنَّ المجـر كانـت تُشـكِّلُ سـورًا منيعًـا ضـدَّ التقـدُّم العُثمـاني فـي أوروبَّـا مُنـذ عهـديّ يُوحنَّـا هونيـاد وابنـه متيـاس كـورڤن. ويبـدو أنَّهـا ضـعفت بعـد ذلـك بفعـل بُـرُوز قُـوَّة الطبقـة الأرسـتقراطيَّة علـى حسـاب الملكيَّـة القويَّـة والطبقـة العسـكريَّة، ولازديـاد الضـغط الاقتصـادي علـى الطبقـة الزراعيَّـة الفقيـرة، مـا أدَّى إلـى حُـدُوث اضـطراباتٍ اجتماعيَّـة واقتصـاديَّة نتيجـة هـذه الخلافـات السياسـيَّة. ومـن جهـةٍ أُخـرى فقـد نـتج عـن اعـتلاء عـرش المجـر مُلُـوكٌ ضـعاف عـدم اسـتغلال انشـغال العُثمـانيين فـي إيـران والشَّـام ومصـر للنظـر فـي أحـوال مملكـتهم والتهيُّـؤ للحرب، وهكذا فإنَّ الظُرُوف كانت مُهيَّأة تمامًا ليستكمل العُثمانيون زحفهم غربًا.

دامت ترتيبات الحرب طيلة شتاء سنة ٩٢٧هـ المُوافقة لسنة ١٥٢١م،

فأرسـل السُـلطان أولًا مـن بحـر البـنطس (الأسـود) خمسـين غُرابًـا صـغيرًا مملـوءة بالعتـاد والحـوائج بقيـادة دانشـمند ريِّـس، وأمـره بـأن يـدخل بهـا مـن بحـر البـنطس إلـى نهـر الطونـة، وكـذلك أرسـل أوامـره إلـى أُمـراء السـناجق الواقعـة بـين نهـريّ الطونـة وصـوه بـأن يُعـدّوا أربعمائـة سـفينة مـن سُـفُن القـرش، ثُـمَّ خـرج مـن إسـلامبول فـي ١٠ جُمـادى الآخـرة المُوافـق ١٧ أيَّـار (مـايو)، علـى رأس جـيشٍ مـن مائـة ألـف جُنـدي، وثلاثـة آلاف جمـل مُحمَّلـة بالبـارود والرصـاص، وثلاثـين ألـف جمـلٍ مُحمَّلـة بـالمؤن، وعشـرة آلاف عربـة مُحمَّلـة بـالطحين والشـعير، وفيلـة مُدرَّعـة، ومـدافع. كـان هـدف الحملـة مدينـة بلغـراد، البوَّابـة المؤديـة إلـى مـا وراء نهـر الطونـة، ومفتـاح أوروبَّـا الوسـطى، وأقـوى قلعـة للمجـر علـى الحُـدُود العُثمانيَّـة، وإذا كُتـب لهـذه المدينـة أن تسـقط فستُصـبح الطريـق إلـى بـودا وويانـة (ڤيينَّـا) مفتوحـة أمـام العُثمـانيين. والمعـروف أنَّ السُـلطانَ مُحمَّـدًا الفـاتح كـان قـد حاصـر المدينـة سـابقًا لكنَّـه فشـل فـي فتحهـا. وعلـم المجريُّـون أنَّ موجـةً جديـدةً مـن الجـيش العُثمـاني تزحـف باتجـاههم، فاسـتنجدوا بـدول أوروبَّـا، لكـنَّ هـذه الـدول تلكَّـأت، ذلـك أنَّ البُندُقيَّـة كانـت تُفـاوض البـاب العـالي بشـأن عقـد مُعاهـدة تجاريَّـة، والبابـا كـان مُنهمكًـا بمُشـكلاتٍ داخليَّـة، وكـذلك كـان ملـك بولونيـا زغمُنـت العجـوز، والإمبراطـور شـرلكان الـذي نصـح الملـك لويس بإبرام هدنة مع السُلطان لكسب الوقت.

العُثمانيُّون في بلغراد، وقد رفعوا راياتهم على أسوارها وأبراجها.

وسُـرعان مـا وصـل الجـيش العُثمـاني إلـى صـوفية عـن طريـق أدرنـة، فقسَّـمه السُـلطان ليزحـف علـى محـاورَ ثلاثـةٍ، فسيَّر قرهأحمد باشـا فـي عسـكر الروملِّـي لفتح شباج علـى نهـر

صـوه، ففتحهـا فـي ٢ شـعبان ٩٢٧هـ المُوافـق ٨ تمُّـوز (يوليـو) ١٥٢١م، وأرسـل السُـلطان إلـى أميـر سـمندريَّة خسـرو بـك يـأمره بـأن يُحاصـر بلغـراد فـيمن معـه مـن عسـاكر الثُغُـور، وأمـدَّه بـألف إنكشـاريّ. ثُـمَّ سـيَّر الصـدر الأعظـم پيـري مُحمَّـد باشـا إلـى سـمندريَّة، فـأخرج منهـا مـدافع كبيـرة وأرسـلها فـي السُـفن التـي وصـلت إليهـا عبـر نهـر الطونـة مُتَّجهـةً إلـى بلغـراد، وكـان السُـلطان قـد أرسـل فـي عقبـه عشـرة آلاف عزبـي، فلحقـوا بـه فـي سـمندريَّة، فسـار الصـدر الأعظـم بهـم إلـى مُحاصـرة بلغـراد. أمَّـا السُـلطان فسـار إلـى شـباج ومنهـا نحـو بلغـراد عبـر بـلاد سـرم، وقـد هـدف السُـلطان مـن وراء تكتيكـه العسـكري هـذا إلـى التمويـه علـى الحملـة وصـرف انتبـاه المجـريين عـن وجهتهـا الأساسـيَّة. وفـي يـوم ٢٧ شـعبان المُوافـق ٣١ تمُّـوز (يوليـو) وصـل السُـلطان مدينـة زمـون، وكـان خسـرو بـك قـد افتتحهـا، فخطـب بـالجُنُود وحـثَّهم علـى فـتح بلغـراد بالإنعـام والمواعيـد الجميلـة.حاصـر العُثمـانيُّون بلغـراد، وامتـدَّ حصـارها وقصـفها وقتـال حاميتهـا قُرابـة ثلاثـين يومًـا، وضـيَّق الجُنُـود الخنـاق علـى أهلهـا، ونفَّـذوا عمليَّـاتِ اقتحـامٍ مُنظَّمـةً حتَّـى تمكنـوا مـن الـدُخُول إليهـا بعـد أن نسـفوا أكبـر بُـرجٍ فـي تحصـيناتها، فسـارع الأهـالي للاسـتئمان مـن السُـلطان، فـأمَّنهم علـى أنفُسـهم وأهلهـم وعيـالهم وأمـوالهم، وتسـلَّم المدينـة يـوم ٢٥ رمضـان ٩٢٧هـ المُوافـق ٢٩ آب (أغسـطس) ١٥٢١م بعـد أن أخلـت الجُنُـود المجريَّـة قلعتهـا، ودخلهـا السُـلطان وصـلَّى الجُمُعـة فـي إحـدى كنائسـها التـي حُوِّلـت مسـجدًا، وخيَّـر أهلهـا بـين المسـير إلـى بـلادٍ مسـيحيَّة وبـين المكـث فيهـا، فسـار الـبعض ومكـث الـبعض. ثُـمَّ بـثَّ السُـلطان سـراياه إلـى فـتح الحُصُـون القريبـة مـن المدينـة، ففُتحـت العشـرات منهـا، مثـل «ترقـاص» و«ديمتروفجـة» و«قارلوجـة» و«قمانجـة» وغيرهـا. كمـا سـيَّر الآقنجيَّـة وأُمـراء الروملِّـي للإغـارة علـى أطـراف المجـر، فسـاروا وأغـاروا عليهـا وعـادوا مُحمَّلـين بالغنـائم والأسـرى. ولمَّـا تـمَّ أمـر الفـتح واغتنـام العسـكر، غـادر السُـلطان بلغـراد بعـد أن تـرك فيهـا حاميـةً مـن ثلاثـة آلاف جُنـدي ومـائتيّ مـدفع، ثُـمَّ أذن للعسـكر فـي الرُجُـوع لأوطـانهم، ورجـع هـو أيضًـا إلـى إسـلامبول فوصـلها فـي ١٧ ذي القعـدة المُوافـق ١٩ تشـرين الأوَّل (أكتـوبر).وبسُـقُوط بلغـراد أُزيـل ذلـك الحـاجز الـذي حـال دون تقـدُّم العُثمـانيين غربًـا، وصـارت هـذه المدينـة أكبـر مُسـاعدٍ للدولـة العُثمانيَّـة علـى فـتح مـا وراء نهـر الطونـة مـن الأقـاليم والبُلـدان، وأضحى الطريق نحو بودا، العاصمة المجريَّة، مفتوحًا.

مُعاهدة البُندُقيَّة مع الدولة العُثمانيَّة

سُـرعان مـا انتشـرت أصـداء انتصـار العُثمـانيين فـي أوروبَّـا، وكانـت رُسُـل دوقيَّـة المسـكوب وجُمهوريَّتَـا البُندُقيَّـة ورجوسـة أوَّل مـن وفـد لتقـديم التهـاني للسُـلطان. وكـان مـن مصـلحة البُندُقيَّـة، وهـي دولـة تجاريَّـة، اسـتمرار العلاقـة الحسـنة مـع البـاب العـالي بفعـل أنَّ مـرد ثروتهـا يعـود إلـى التجـارة البحريَّـة، وأنَّ حُريَّـة التنقـل فـي البحـار هـي الشـرط لهـذه الحركـة التـي مـن دونهـا تختنـق الجُمهُوريَّـة، والتهديـد الوحيـد الـذي يُمثِّـلُ خطـرًا عليهـا وعلـى مُمتلكاتهـا قـد يـأتي مـن الدولـة العُثمانيَّـة، والسياسـة الوحيـدة المُتوخـاة هـي الـتلاؤم بقـدر الإمكـان، عبـر إقامـة علاقـةٍ حسـنةٍ مـع البـاب العـالي، وقـد سـاعدها علـى ذلـك أنَّ علاقتهـا بالدولـة العُثمانيَّـة، فـي عهـد السُـلطان سـليم وبدايـة عهـد السُـلطان سُـليمان لـم تكـن مُتـوتِّرة، لـذلك فإنهـا عملـت، عـن طريـق سـفيرها فـي إسـلامبول، علـى تجديـد الامتيـازت وعقـد

مُعاهدة مع الدولة العُثمانيَّة، وُقِّعت في ١ مُحرَّم ٩٢٨هـ المُوافق ١ كانون الأوَّل (ديسمبر) ١٥٢١م، أيَّدت المُعاهدات السابقة وأضافت إليها بعض الزيادات التي تطلَّبتها واقعيَّة الظُرُوف السياسيَّة والاقتصاديَّة. والجدير بالذكر أنَّ البُندُقيَّة كانت مُستعدَّة لكُل شيء مُقابل حماية تجارتها في شرقيّ البحر المُتوسِّط. وأهم ما جاء في هذه المُعاهدة، التي تضم ثلاثين بندًا، ما يلي:

ضمان أمن التُجَّار وسلامتهم. تحديد مُدَّة إقامة القُنصل في إسلامبول، ووُجوب تبديله مرَّة كُل ثلاث سنوات. إعفاء جميع تُجَّار البُندُقيَّة من الجزية. عدم وضع عراقيل في وجه تجارة البُندُقيَّة مع دول شمالي إفريقيا. عدم جواز تنقُّل التُجَّار البنادقة في أنحاء الدولة العُثمانيَّة من دون إذن القُنصل، وفي حال وفاة أحدهم تُنظَّم قضيَّة إرثه من طرف القُنصل. يحق للقنصل إرسال مُترجمين لحُضُور المُرافعة التي تُقام ضدَّ الرعايا البنادقة أمام المحاكم العُثمانيَّة. تدفع حُكُومة البُندُقيَّة إلى الحُكُومة العُثمانيَّة جزيةً سنويَّة قدرها عشرة آلاف دوقيَّة لقاء احتلالها جزيرة قبرص، وخمسمائة دوقيَّة لقاء احتلالها جزيرة زانطة.

تكمن أهميَّة هذه المُعاهدة في أنَّها تحتوي على الأُسس الرئيسة التي نُظِّمت على أساسها المُعاهدات مع الدول الأوروبيَّة الأُخرى، وقامت عليها الامتيازات القُنصليَّة في بلاد الدولة العُثمانيَّة.

فتح رودس

شرع السُلطان، بعد تمام فتح بلغراد وتوقيع المُعاهدة مع البُندُقيَّة، في التجهيز لفتح جزيرة رودس واستخلاصها من أيدي فُرسان الإسبتاريَّة، الذين كانوا يحكمونها مُنذُ أن طُردوا من الشَّام حينما استردَّ المُسلمون مدينة عكَّا سنة ٦٩٠هـ المُوافقة لسنة ١٢٩١م. ومُنذُ ذلك الوقت صارت هذه الجزيرة شوكة في خاصرة المُسلمين، فما برح الإسبتاريُّون يعتدون على السُفُن الإسلاميَّة ويُساعدون القراصنة النصارى ويقطعون طُرق الحُجَّاج المُسلمين إلى الحجاز، فضلًا عن قطعهم خُطُوط المُواصلات البحريَّة العُثمانيَّة، وإغارتهم على سواحل الأناضول والشَّام، ويُهدِّدون الطُرق الواقعة بين إسلامبول ورودس. وبشكلٍ عام فإنَّ هذه الجزيرة كانت تتحكَّم بعُقدة مواصلات شرقيّ المُتوسِّط، وتُشكِّل حلقة اتصال بين إسلامبول ومصر.

ومن المعروف أنَّ السُلطان مُحمَّد الفاتح كان قد حاول فتح هذه الجزيرة في أواخر عهده، لكن لم يُكتب له ذلك، فدرس السُلطان سُليمان تلك المُحاولة دراسةً جيِّدة ليستفيد منها، بعد أن رأى أنَّ اقتلاع هذه الشوكة صار واجبًا، كي لا يكون للنصارى مركزٌ حصين في وسط بلاده تلجأ إليه أساطيل الدول المُعادية وقت الحرب، وكي لا تُقطع الطريق بين إسلامبول ومصر، وكي يُطهَّر الحوض الشرقي للمُتوسِّط فيصير بحرًا عثمانيًّا خالصًا.دعا السُلطان الديوان الهمايوني للاجتماع للتباحث في مسألة فتح هذه الجزيرة، فأشار الصدر الأعظم پيري مُحمَّد باشا بضرورة ذلك، وحثَّ السُلطان على الإقدام دون تردُّد، وكذلك فعل السردار جوبان مُصطفى باشا وأمير البحار مُصلح الدين ريِّس بن قورد. والحقيقة أنَّ الفُرصة كانت مؤاتية لتحقيق هذا العمل الكبير لانشغال

مُلُوك أوروبَّا في شؤونهم الداخليَّة، ففرنسوا ملك فرنسا وشرلكان كانا مُنهمكين بمُحاربة بعضهما، والبابا لاون العاشر كان مُشتغلًا بمُجادلة ومُقاومة الراهب الألماني مارتن لوثر مُؤسس البروتستانتيَّة، وبلاد المجر مُضطربة بسبب عدم اتفاق أُمرائها وأعيانها وصغر سن ملكها لويس الثاني. لكن رُغم ذلك فإنَّ السُلطان أرسل إلى شيخ الفُرسان «فيليب ڤليه دوليل آدم» (بالفرنسية: Philippe Villiers de L'Isle-Adam)، قبل الشُرُوع في الحرب، كتابًا يعرض عليه إخلاء الجزيرة والانسحاب منها بكُلِّ من معه من النصارى الذين يؤثرون المُهاجرة على البقاء مُتعهدًا له بعدم التعرُّض لأنفُسهم ولأموالهم، لكنَّ الشيخ المذكور لم يقبل.

أمر السُلطان ببناء سُفُنٍ عظيمة لإحكام الحصار على الجزيرة، ثُمَّ عيَّن جوبان مُصطفى باشا سردارًا على العسكر وأرسله في السُفُن إلى جانب رودس، وانضمَّ إليه قُبطان قَلِّيبُلِي «بُلاق مُصطفى باشا» أثناء توجهه إلى هدفه، فوصل عدد السُفن العُثمانيَّة المُحاصرة إلى سبعمائة سفينة، وقيل أربعمائة. ثُمَّ خرج السُلطان نفسه من إسلامبول وبرفقته الصدر الأعظم وشيخ الإسلام علي أفندي الزنبيلي، وعبروا إلى أُسكُدار فيمن معهم من العسكر في ١٠ رجب ٩٢٨هـ المُوافق ٣ حُزيران (يونيو) ١٥٢٢م، وفي أثناء ذلك وصل إلى الركاب السُلطاني فرحات باشا وشكا للسُلطان من علي بك بن شهسوار أمير ذي القدريَّة، وادَّعى أنه يعتدي على الرعيَّة ويميل إلى العصيان وغير ذلك من الأُمور، حتَّى أذن له السُلطان بقتله، ففعل وشفى صدره من غيظه القديم عليه لمَّا سبقه في إخماد فتنة الشيعة بالأناضول زمن السُلطان سليم. وبعد قتله مكث فرحات باشا في ثُغُور الممالك العُثمانيَّة ليحفظها من هُجُوم الصفويين بقيادة الشاه إسماعيل إن أراد ذلك. أمَّا السُلطان سُليمان فإنَّه لمَّا وصل إلى كوتاهية انضمَّ إليه بكلربك الروملِّي أياس باشا مع أُمراء تلك البلاد وعساكرها، فسيَّر الصدر الأعظم پيري مُحمَّد باشا مُقدِّمةً إلى الجزيرة، ثُمَّ عبر السُلطان أيضًا من مرمريس في غُرابٍ سريع السير سُمّي «يشيل مَلَك» أي «الملاك الأخضر».وفي غُضُون ذلك كان السردار جوبان مُصطفى باشا قد وصل رودس، وفتح في طريقه جزيرة «هركة» من لواحق رودس، فشاور القباطنة والمُجرِّبين في غزوات البحر، وقرَّروا ترك جميع السُفُن الكبيرة في موضعٍ يقطع الإمدادات على الإسبتاريين، ثُمَّ سار هو في ثلاثمائة غُراب سريع الحركة إلى مُحاصرة القلعة، ودخلوا تحتها بحيث كانت قلل المدافع تمرُّ من فوقهم، ثُمَّ رسوا في ميناءٍ يُعتقد أنه مرسى السُفُن، فأمضوا ليلتهم هُناك وهم يُهلِّلون ويُكبِّرون ويُكثرون من مُناجاة الله قائلين «يا فتَّاح». ولمَّا وصل السُلطان إلى الجزيرة يوم ٤ رمضان المُوافق ٢٨ تمُّوز (يوليو) قسَّم الجيش لمُحاصرة القلعة، فجعل الصدر الأعظم على يمينها، وبجانبه بكلربك الأناضول مُصطفى قاسم باشا، وجعل جوبان مُصطفى باشا على اليسار، وأمام القلعة قرهأحمد باشا مع بكلربك الروملِّي أياس باشا وآغا الإنكشاريَّة، وباشروا القتال في ٥ رمضان المُوافق ٢٩ تمُّوز (يوليو).

حقيقة أنَّ انتصار العُثمانيين وانهيار الملكيَّة المجريَّة أدَّت إلى انقسام أشراف البلاد، ففي حين كان زابوليا يحظى بتأييد مُعظم صغار النُبلاء، كان فرديناند أرشدوق النمسا وشقيق الإمبراطور شرلكان، يحظى بدعم أغلب كبارهم، من أقطابٍ وبارونات، إضافةً

إلى رجال الدين الكاثوليك. فكان من نتيجة ذلك أن تقسَّمت بلاد المجر إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ يحكمه زابوليا الذي انتُخب في سِكِشفهروار يوم ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٢٦م، وقسمٌ يحكمه فرديناند الذي انتُخب في پُوزُنِ يوم ١٧ كانون الأوَّل (ديسمبر) ١٥٢٦م وضمَّه إلى مُلكه في بوهيميا، وقسمٌ ضمَّه السُلطان سُليمان إلى الدولة العُثمانيَّة.أمر السُلطان أيضًا بنقل عدَّة آلاف من العائلات المجريَّة المسيحيَّة واليهوديَّة ممن كانوا مرغوبين لمهاراتهم وكفاءاتهم إلى بلادٍ أُخرى ضمن الدولة العُثمانيَّة، فأسكن عدَّة بُيُوت من هؤلاء في ضاحية «يدي قلعة» لإسلامبول، وأرسل بعض اليهود ليستوطنوا سالونيك، وبعضهم الآخر إلى الممالك الأُخرى. بعد ذلك قفل السُلطان عائدًا إلى عاصمة مُلكه، وأخذ معه كثيرًا من نفائس البلاد وأهمَّها الكُتُب التي كانت موجودة في خزائن كنيسة متياس كورڤن، وثلاثة تماثيل مصنوعة من البرونز كانت موجودة خارج باب العاصمة المجريَّة، فحُملت في السُفُن وأُرسلت إلى إسلامبول ليراها الناس، ووُضع كُلٌ منها على كُرسيٍّ حجريّ في ميدان الفُرُوسيَّة، وكذلك شمعدانتان كبيرتان، وكانتا مطليتين ومُزخرفتين، ووُضعتا على يمين ويسار محراب جامع آيا صوفيا. وفي أثناء عودته، أقام السُلطان أُسبوعًا في مدينة أدرنة، ثُمَّ وصل إلى إسلامبول في ١٧ صفر ٩٣٣هـ المُوافق ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٢٦م.